الشعر في الأندلس

obeikandl.com

obeikandl.com

نشأة الشعر الأندلسي:

ظهر الشعر في الأندلس وازدهر نتيجة هوامل أهمها :

- طبيعة الأندلس وتنوُّعها وما فيها من مواطن الجمال والطبيعة الساحرة .
- التكوين الثقافي التنوع للسكَّان الذين عاشوا في الأندلس .
- ما ساد المجتمع من السماحة الطيبة بعيدا عن التعصُّب المقيت.
- ما حدث من التَّجانُس بين سكَّان الأندلس
- الاستقرار السياسي والأمن الذي ساد المجتمع .
- الرخاء وانتعاش الحياة الاقتصادية .
- هجرة كثير من الشعراء العرب واستيطانهم في مجتمع الأندلس الجديد .

ولهذا كله برز منهم الشعراء والناثرون وعلماء اللغة .

مكانة الشعر عند الأندلسيين :

- إذا كان الشعر في المشرق قد احتل مكانة مرموقة ؛ فقد حظِي الشِّعْر عند الأندلسيِّين بمكانة عظيمة، ونال الشُّعراء

تقديرا وتكريما من ملوكهم فراحوا ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم.

- كما عرفت بلاد الأندلُس بجمال مناظرِها وأوْضاعها الطبيعيَّة الخلاَّبة، فأفاض الشُّعراء في التغنِّي بجمالها.

ولعلَّ هذه الطبيعة هي التي غذت فيهم الروح الموسيقيَّة المرحة التي حدت بهم إلى أن يفتنوا في الأوزان الشعريَّة، فيضيفوا إلى ما هو معروف منْها أوزانًا في غاية الخفَّة والجمال،وتعد الموشحات خير دليل.

كما أن مظاهر التميُّز والتفرُّد الأندلسي دفعهم إلى ابتكار أجناس أدبيَّة خاصَّة باللغة العربية الفصيحة، سمِّيت بالموشَّحات، وأخرى بالعامِّية سميت بالزَّجل.

أغراض الشعر الأندلسي :

استوعب الشعر الأندلسي مظاهر الحضارة وعبر عن مضمونها وطبيعة الصراعات السياسية والتغيّرات الاجتماعية في مجتمع العرب الجديد في بيئة الأندلس وكانت أغراض الشعر الأندلسي امتدادا لأغراضه عند المشارقة ، فقد عالج شعراء الأندلس مختلف أغراض الشعر من مدح ورثاء وفخر ووصف وغزل وهجاء :

• أما الوصف :

فقد احتل مرتبة عالية من بين أغراض الشعر وكان لطبيعة الأندلس الأثر الحاسم في جعل شعر الطبيعة من أميز أغراض الشعر الأندلسي، وتمثل طبيعة الأندلس الرائعة الملهم الأول لشعرائها، فهذا ابن خفاجة أشهر شعراء الطبيعة في الأندلس يصف جبلا ضخما ، فيقول (٢) :

وأرعن طماح الذؤابة باذخ

يطاول أعنان السماء بغارب

يلوث عليه الغيم سود عمائم

لها من وميض البرق حمر ذوائب

أصخت إليه وهو أخرس صامت

فحدثني ليل السرى بالعجائب

وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل

وموطن أواه تبتل تائب

وكم مر بي مـــن مـــدلج ومـــؤوب

وقال بظـــلي من مطي وراكـــــب

فما كان إلا أن طوتهم يـــد الـــردى

وطاحت بهـــم ريح النوى والنوائب

فحتى متى أبقى ويظعـــن صـــاحب

أودع منه راحـــــلا غيـــر آيـــب

فرحماك يـــارب دعـــوة ضـــارع

يمد إلى نعمـــاك راحـــة راغـــب

ويلاحظ ان الوصف الأندلسي يميل إلى التشخيص مع حشد كبير من التشبيهات والاستعارات، وتنوع الوصف فكان منه وصف الطبيعة من أنهار وأشجار وحدائق غناء وقصور وقنص وسباق ووصف مجالس الغناء والطرب والسمر.

• والمدح :

تناول الشعراء في مدحهم صفات الشجاعة والكرم والوفاء ووصف المعارك الحربية والإشادة بما حققه الممدوح من انتصارات وما أحرزه من عز للإسلام والمسلمين.

وتوجه الشعراء بمدحهم إلى الأمراء والخلفاء والحكام، وكان المدح بوجه عام يميل إلى التأنق في العبارة والصياغة .

والملاحظ أن طريقة بناء قصائد المدح اختلفت من شاعر لآخر، فبعضها كان ينهج نهج الأقدمين، فيبدأ بمقدمة طللية ونسيب ووصف للرحلة ثم يتخلص إلى المدح، وكان منهم من يعمد إلى موضوع المدح مباشرة دون مقدمات

وكان ممن اشتهر من شعراء الأندلس في هذا الغرض : ابن حمديس وابن هانئ وابن زيدون وابن دراج القسطلي ، وندر أن نجد شاعراً لم يعالج هذا الغرض في شعره .

ومن قصيدة ابن هانىء في مدح المعز لدين الله [٣] :

هل كان ضَمّخَ بالعبير الرَيْحَا

مزنٌ يهزّ البرقُ فيه صفيحا

يهدي تحيات القلوب وإنما

يهدي بهنّ الوجد والتبريحا

شرقتْ بماء الورد بلّلَ حبيبها

فأتت ترقرقهُ دمًا منضوحا

أنفاسُ طيبٍ بِتّنَ في درعي وقد

بات الخيال وراءهنّ طليحا

• الغزل :

تناول الشعراء أوصاف المحبوب من البيئة حوله، وما يتمتع به من رقة وظرف وجمال كقول ابن زيدون متغزلا ولادة بنت المستكفي ومبينا ما يعاني من الوجد في نونيته المشهورة [٤] :

تكـــاد حـــين تنـــاجيكم ضـــمائرنا

يقضي علينا الأسى لـــولا تأســـينا

حـــالت لفقـــدكم أيامنـــــا فغـــدت

سوداً وكانت بكـــم بيضـــاً لياليـنـــا

لا تحســـبوا نـــأيكم عنـــا يغيرنـــا

إذ طالـــمـــا غير النأي المحبينـــــا

غيظ العـــدا مـــن تســـاقينا الهـــوى

فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينـــا

وقول ابن عبد ربه:

يا لـــــؤلؤا يســـبي العقـــول أنيـــق

ورشـــا بتقطيـــع القلـــوب رقيقـــا

ما إن رأيـــت ولا ســـمعت بمثلـــه

درأ يـــعود مـــن الحيـــاء عقيقـــا

وإذا نظرت إلـــى محاســـن وجهـــه

أبصرت وجهك في ســـناه غريقـــا

يا من تقطـــع خصـــره مـــن رقـــة

ما بال قلبـــك لا يكـــــون رقيقـــا؟

• الرثاء :

وفي شـعر الرثـاء في الأنـدلس اتخـذ الشعراء مـن نمـاذج الشـعر المشرقي منهجـا سـاروا عليـه فاسـتهل الشـاعر الأندلسي قصيدة الرثـاء بالحديث عن الفاجعة .

ووصف المصيبة التي حلت بموت الفقيد، ومنهم من كـان يستهل القصيدة بالحِكَم وتختتم بالعظات والعبر.

وتطور الرثاء في أغراضه فرأينا منه رثاء المدن والممالك الزائلة .

وخير مثال للرثاء قصيدة أبي البقاء الرَّنْدِي في الحديث عما حل بالأندلس والتي منها قوله (٥) :

لكل شـــيء إذا مـــا تـــم نقصـــان

فلا يغـــر بطيب العـــيش إنســـان

هي الأمـــورُ كمـــا شـــاهدتها دولٌ

من ســـره زمـــن ســـاءتهُ أزمـــانُ

وهذه الدار لا تُبقـــي علـــى أحـــدٍ

ولا يدومُ على حـــالٍ لهـــا شـــانُ

أينَ الملوكُ ذووا التيجان من يَمَـــنٍ

وأيـــنَ مـــنهم أكاليـــلٌ وتيجـــانُ؟

وأينَ ما شَـــادهُ شـــدادُ فـــي إرمٍ ؟

وأينَ ماساسهُ في الفرسِ ساســـانُ

وأينَ ما حازهُ قارونُ مـــن ذهـــبٍ

وأينَ عـــادٌ وشـــدّاد وقحطـــان؟

وفي مرثية ابن عبدَون في رائيته يقول (٦) :

الدَّهْر يفجَــع بعــد العــين بــالأثرِ

فما البكاءُ على الأشباح والصّــور؟

أنهــاكَ أنهــكَ لا آلُــوك موعظــةً

عن نومةٍ بين نابِ اللّيث والظُفُــر

فالدّهر حربٌ وإن أبــدي مســالمَةً

والبيضُ والسودُ مثلُ البيض والسُــمُر

ولا هــوادةَ بــين الــرّأس تأخُــذُه

أيْدي الضّرابِ وبين الصّارِمِ الذّكر

فلا يغرنّــك مــن دنيــاك نومتُهــا

فما صناعةُ عينيها سِــوَى السَّــهر

مَــا للّيــالي أقــــالَ الله عثْرتَنــا

من اللّيــالي وخَانَتْهــا يَــدُ الغِيــرَ

تَسُرُّ بالشّيء لكن كـــي تَغُـرَّ بـــه

كالأيْمِ ثَار إلى الجانِي من الزَّهــر

كم دوله ولِيَــت بالنّصــر خــدمتَها

لم تُبق منها وسَلْ دنياك عن خَبــر

هوت بَدارا وفلَّــت غَــرب قَاتِلِــه

وكان عَضْباً على الأملاك ذا أثُــر

• الزهد والتقشف :

شاع هذا اللون بين شعراء الأندلس وتفوقوا فيه على شعراء المشرق من حيث غزارة الإنتاج وتوليد المعاني ورسم الصور المؤثرة القوية

وفي شعر الزهد والتقشف يدرك الإنسان التوبة بعد طول حياة لاهية فيسخرطاقته الشعرية في آخر أيامه إلى طلب مغفرة الله ومرضاته وإلى ذم حياة اللهو والمجون والدعوة إلى الزهد والتقشف، ومن أشهر الشعراء في هذا الغرض الشعري ابن عبد ربه وابن حمديس والغزال.

يقول الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل القرشي الأشبوني ، وهو أحد الأدباء النبلاء والشعراء المحسنين (٧) :

يـــا غـــافلا شـــأنه الرقـــاد

كأنمـــا غيـــرك المـــراد

والمـــوت يرعـــاك كـــل حـــين

فكيـــف لـــم يجفـــك المهـــاد؟

ما حال ســفر بغيـــــــــر زاد

والأرض قفـــــر ولا مـــــزاد

وابن حمديس من الشعراء الذين آلمتهم المحنة التي حلت بوطنه الأول"صقلية" فكان دائم الأسى والحزن، كثير الشكوى من الزمان ولؤم الناس، متبرما بالحياة، وبما ناله من غدر الزمان وتصريف الحياة يقول في البكاء على الشيب الذى غزاه في وقت مبكر من العمر (٨):

وعظـــت بلمتـــك الشـــائبه وفقـــد شـــبيبتك الذاهبـــه

وسبعين عاماً تـــرى شمســـها بعينيـــك طالعـــة غاربـــه

فيـــا حاضـــراً أبـــداً ذنبـــه وتوبتـــه أبـــداً غائبـــه

أذب منك قلبـاً تجـاري بـه سـوابق عبرتـك السـاكبه

• شعر التصوف :

يأتي على رأس هذا الغرض شيخ المتصوفين ابن عربي وابن سبعين وابن العريف والشستري وغيرهم.

وفي هذا اللون من الشعر تغني الشعراء بمدائح الرسول ، والحنين إلى الحجاز والأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة .

كما اتجهوا بشعرهم للاستغاثة بالرسول الكريم واصفين محنهم وأذاهم.

ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو زيد الفازازي وابن جابر الأندلسي وأبو الحسن الرُّعَيْني وغيرهم من شعراء الأندلس. ، قال عزيز بن يشت (٩) :

يا سيّد الأرسال غير مدافع وأجلّهم سبقاً وإنْ هم أعتقُ
فاجبرْ كسيرَ جرائر وجرائمٍ فالبذل والإنفاق عندك ينفقُ
أرجوك يا غيثَ الأنام فلا تدعْ فالقلبُ من عِظَمِ الخطايا يقلقُ
حاشاك تطردُ مَنْ أتاك مؤمِّلاً باب الرضا دوني يُسدُّ ويُغلَقُ

حاشاك تطردُ مَنْ أتاك مؤمِلاً فَلأنتَ من أمي أحنُّ وأرفــقُ

• الفلسفة :

هـذا اللـون مـن الشـعر يقـوم علـى تصـوير الخـواطر النفسـية والتأملات الفكرية وتطويع الفلسفة للشعر والشعر للفلسفة ، مثل قول الشاعر الغزال (١٠) :

أرى أهل اليســار إذا تُوُفُّــوا بَنوا تلك المقــابر بالصــخور

أبــوْا إلاّ مُبَاهــاة وفخــرًا على الفقراء حتى في القبــور

إذا أكل الثــرى هــذا وهــذا فما فضل الغنيّ على الفقيــر؟

أغراض جديدة ظهرت في الأندلس:

• الموشحات (١١):

فـن شـعري مستحْدَث، عرفـت بـه بيئـة الأنـدلس ، ولـه نظـام يختلـف عـن نظـام القصيدة في الشعر الغِنـائي العربـي في أمـور عـدَّة، إذ يسير على نمط معين .

وفي سبب التَّسمية، فالرَّاجح أنَّ هذا الفن سمِّي بالموشَّح لما فيه من ترْصيع وتزيين وتناظر وصنعة، فكأنهم شبَّهوه بوشاح المرأة المرصَّع باللؤلؤ والجوهر.

وكلمة موشح أو الموشحة مشتقة من الوشاح ، وهي حلية ذات خيطين يسلك في أحدهما اللؤلؤ، وفي الآخر الجوهر، أو هو جلد عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها. والثوب الموشح هو الثوب المزين، فالفكرة إذن هي فكرة التجميل المنوع المعتمد على التقابل، وهكذا الموشح أو الموشحة، تزدان بالقوافي المنوعة والأوزان المتعددة، ولكن مع التقابل في أجزائها المتماثلة واتَّسعت الموشَّحات لاحتِضان كلِّ موضوعات الشِّعْر وأغراضه.

• مكونات الموشح :

وتتألف الموشحة غالبا من خمس فقرات، تسمى كل فقرة بيتا. والبيت في الموشحة ليس كالبيت في القصيدة، لأن بيت الموشحة فقرة أو جزء من الموشحة يتألف من مجموعة أشطار، لا من شطرين فقط كبيت القصيدة.

وكل فقرة من فقرات الموشحة الخمس ينقسم إلى جزأين: الجزء الأول مجموعة أشطار تنتهي بقافية متحدة فيما بينها ومغايرة في الوقت نفسه للمجموعة التي تقابلها في فقرة أخرى من فقرات الموشحة.

أما الجزء الثاني من جزئي بيت الموشحة، فهو شطران - أو أكثر- تتحد فيها القافية في كل الموشحة.

والجزء الأول الذي تختلف فيه القافية من بيت إلى بيت يسمى غصنا، والجزء الآخر الذي تتحد قافيته في كل الموشحة، يسمى قفلا.

وهذا نموذج لموشحة، نسوقه لكي تتضح تلك الأجزاء التي تؤلف هذا البناء الشعري، وهي لابن سهيل الإشبيلي، أحد شعراء القرن السابع الهجري:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى

قلب صب حله عن مكنس؟

فهو في حر وخفق مثلما

لعبت ريح الصبا بالقبس

يا بدورا أطلعـــت يـوم النـوى

غرورا تسلك في نهـج الغـــرر

ما لعينـي وحـدها ذنـب الهـوى

منكم الحسن ومن عينـي النظـر

أجتنـي بالـذات مكـروه الجـوى

والتـذاذي مـن حبيبـي بـالفكر

وإذا أشـــكوه وجـــدى بســـما

كـالربى والعـارض المنـبجس

وإذ يقـيم القطـر فيهـا مأتمـا

وهي مـن بهجتهـا فـي عـرس

***

مـن إذا أملـى عليـه حرقـى

طـارحتني مقلتـاه الـدنفا

تركـــت ألحاظـــه مـــن رمقـــي

أثر النمـــل علـــى صـــم الصـــفا

وأنـــا أشـــكره فيمـــا بقـــى

لســـت ألحـــاه علـــى مـــا أتلفـــا

وهـــو عنـــدي عـــادل إن ظلمـــا

ونصـــيحي نطقـــه كـــالحرس

ليس لي في الأمر حكم بعـد مـــا

حل مـــن نفســـي محـــل الـــنفس

***

غالـــب لـــي غالـــب بـــالتؤده

بأبي أفديـــه مـــن جـــاف رقيـــق

مـــا علمنـــا قبـــل ثغـــر نضـــده

أقحوانـــا عصـــرت منـــه رحيـــق

أخـــذت عينـــاه منـــه العربـــده

وفـــؤادي ســـكره مـــا إن يفيـــق

فـــاحم اللمـــة معســـول اللمـــى

ســـاحر الغـــنج شـــهي اللعـــس

وجهـــه يتلـــو الضـــحى مبتســـما

وهـــو مـــن إعراضـــه في عبس

أيها الســـائل عـــن جرمـــي عليـــه

لي جزاء الـــذنب وهـــو المـــذنب

أخذت شمس الضحى من وجنتيـــه

مشـــرقا للشـــمس فيـــه مغـــرب

ذهبـــت دمعـــي أشـــواقي إليـــه

ولـــه خـــذ بلحظـــي مـــذهب

ينبت الـورد بغَرسـي كلمـا

لحظتـه مقلتـي فـي الخلـس

ليـت شـعري أي شـيء حرمـا

ذلـك الـورد علـى المغتـرس

***

أنفدت دمعـي نـار بـي ضـرام

تلتظـي فـي كـل حـين ماتشـا

هي فـي خذيـه بـرد وسـلام

وهي ضر وحريـق فـي الحشـا

أتقـي منـه علـى حكـم الغـرام

أسـدا وردا وأهـواه رشـا

قلـت لمـا أن تبـدي معلمـا

وهو مـن ألحاظـه فـي حـرس

أيهـــا الآخـــذ قلبـــي مغنمـــا

اجعـــل الوصـــل مكـــان الخمـــس

• الزجل:

الزَّجل هو الموشَّح المنظوم باللغة العاميَّة، قام بنسجه ونظمه الطبقة العاميَّة على سليقتها ، وكانت الأزجال تؤدَّى مصحوبة بالموسيقى، ونظمت دون التِزام بقافية أو وزن.

وفي هذا الصَّدد أورد ابن خلدون في المقدّمة: "لما شاع فنُّ التَّوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور؛ لسلاستِه وتنميق كلامِه وترصيع أجزائه - نسجت العامَّة من أهل الأمصار على منوالِه، ونظموا في طريقتهم بلُغتهم الحضريَّة من غير أن يلتزموا فيه إعرابًا، واستحدثوا فنًّا سمَّوه بالزَّجل، والتزموا النَّظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهْد، فجاؤوا فيه بالغرائب، واتَّسع فيه للبلاغة مجال، بحسب لُغَتِهم المستعجمة".

وكان أوَّل مبتكر للزَّجل هو أبو بكر بن قزمان:

يقـــول أبـــو الحســـن الششـــتري

زَارنـــي حبِّـــي وطابـــت أوقـــاتي

زَارني حِبِّي وطابـت أوقـاتِي وسـمعْ لـي الحبيـبْ

وعَفـا عـن جميـعْ زَلاَّتِـي عَلَـى غـيْظ الرقيـبْ

زَارَنِـي مُنْيتـي وزال البـاسْ وسَـمح بالوِصـالْ

وحضَرْ حضْرتِي ودار الكـاسْ وبلغْـتُ الآمـالْ

وشَـرِبنا وطابَـتِ الأنفـاس مِـن مُـدامِ حَـلالْ

إمْـلاَ كاسِـي ففيـهْ مزاتِـي نشـربُوا يـا لَبيـب

وحَبيبـي أنسـي ومشْـكاتي مَعـي حاضِـرْ قريـب

أي مدامه وأي خمره وأي خمَّار وأي طـربْ وأي غنـا

فـي رِيـاضٍ تفتَّحـت أزْهـارْ وأنـارَت لنَـا

والْطُيور في منـابِرِ الأشـجارْ تخْطِـبْ بيْننـا

السَّقِيهُ الذي يَقُـولْ لـيِّ تُـوب إنمـا أنـا رَشـيدْ

ونقُـول للعَـذولِ إذْ يـأتِي إنّ وقتـي عجِيـبْ

عِلْمِي في ما مَضى ومـا يـأتِي مُمْـرض هُـو الطَّبيـب

أنا في ذا الْهَوى إمامْ عصـري ومحِـب المجُـونْ

وفي عِشْق الْمِلاح فنيتُ عُمْـري وفنَيْـــــتُ الفُنـــــونْ

في دُجى اللَّيْلِ زارنِـي بـذري لا تَـــــراهُ الْعُيـــــونْ

وأضَـــا مَنزلِـــي وســـاحاتِي كـــادَ عقْلـــي يَغِيـــب

في سُـكُونِي سَـكَن وحركـاتي حاضِـــــر لاَ يَغيـــــب

أنا في مـذْهَبي نهَـب نفْسـي للَّـــذِي هِمْـــتُ فيـــه

وحضَرْ حضْرتِي حضَرْ أنْسـي وأضَـــا الوقْـــتُ بِيـــه

وتقُلْ لُو يا بَـدْري يـا شمسـي عنْـــــدما نلْتقِيـــــه

زارَني حِبِّي وطابـت أوقـاتِي وسـمحْ لـي الحبيـب

مُذْ عفـا عـن جمِيـع زَلاَّتـي علـى غـيْظ الرَّقِيـب

أما خصائص الشعر الأندلسي فتبدو في :

- **الألفاظ والأساليب:**

امتازت ألفاظ الشعر الأندلسي بالسهولة والرقة ، لا أثر فيها لغموض أو التواء أو خلل، والأساليب قوية محكمة وجاء أكثر شعرهم جاريا مع ا لطبع من غير تكلف أو تصنّع.

- **الأفكار و المعاني :**

بدت معاني الشعر الأندلسي واضحة خالية من المبالغة في طلب المعاني ، وفيها كثير من الابتكار ، والأفكار قوية تقليدية.

- **الصور والأخيلة:**

برع الأندلسيون في التصوير وأغرقوا في التخيل ، وامتزجوا بالطبيعة الخلاّبة وانعكس ذلك على شعرهم فبدا ظاهرا ملموسا في التشبيهات الرائعة ، والاستعارات الدقيقة والتشخيص الممتع .

- **الأوزان والقوافي:**

نظم الأندلسيون الشعر اعتمادا على البحور الخفيفة القصيرة لتناسبها مع حالة الترف واللهو وحب الغناء الذي انتشر في مجتمعهم ، فجاؤوا بمقطوعات رشيقة أنيقة ، وبدت رقّة الحضارة واضحة في انتشار الغناء واستحداث الموشحات .

الهوامش :

(١) (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) أحمد بن محمد المقري ، القاهرة ١٩٤٩.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص (٦٧)

(٣) ديوان ابن هانىء ص (٥٤)

(٤) ديوان ابن زيدون ص (٨٤)

(٥) الأدب الأندلسي د أحمد هيكل ص (١١٤)

(٦) نفسه ص (٤٤)

(٧)نفسه ص (٥١)

(٨) ديوان ابن حمديس (٧٤)

(٩) الأدب الأندلسي (٩١)

(١٠) نفسه ص (٩٤)

(١١) نفسه ص (١٠٧وما بعدها)

obeikandl.com